محاضرات في فلسفة العلوم للسنة الثالثة فلسفة للموسم الجامعي 2019-2020،

إعداد الأستاذ: " العالم عبد الحميد

*فوكو (ميشال) [1926-1984] Foucault (Michel)

1- نبذة عن "فوكو":

"ميشال فوكو" فيلسوف وباحث فرنسي، عرف في البداية باهتماماته في علم النفس الذي عمل على تدريسه لسنوات، فقبل ماي 1968، قبلت ضويته لتدريس علم النفس بإحدى الجامعات الفرنسية ثم انتقل إلى جامعة "ليل" مدرسا لنفس المادة أو المبحث. كما كانت له دراسات عن علم نفس الوجودي. وقد ألف في علم النفس وله عدة كتابات، منها مقال له (حول البحث في علم النفس) سنة 1957. وفي عام 1954، صدر له كتاب بعنوان (المرض العقلي والشخصية)؛ فضلا عن نشر كتابه الموسوم بـ (علم النفس في فرنسا). وبحسب "بيار باشلي"، فإن "فوكو" كان عرف بأنه عالم نفس حتى مطلع الستينيات.

في بداية الستينات أتيحت له فرصة للذهاب إلى السويد، لتدريس الفرنسية، ليعود بعدها إلى فرنسا، وتحديدا إلى جامعة "كلارمون فرون"، ناقش أطروحته للدكتوراه، وهناك كان لا يزال يدرس علم النفس، وفي الوقت نفسه صدر له كتاب (الكلمات والأشياء) الذي أحرز بسببه شهرة بر متوقعة. وفي الموسمين الجامعيين 1966-1967؛ و 1967-1968، صار أستاذا بالجامعة التونسية، بعد قبول ملفه الذي تقدم به، وفي هذه الجامعة كان يلقي محاضرات عن "ديكارت" و"هوسرل" وحتى في السيكولوجيا، كما كان له أول درس عن الجماليات وتاريخ الفن؛ علاوة على تناوله بعض الدروس العمومية التي كان يحضرها أناس متعددون المشارب: فيهم الطلاب، والمتقنون والمبدعون والمنشغلون بالهم الفكري.

وبحسب المفكر والباحث التونسي "فتحي التريكي"، فإن "فوكو" لم يسبق له وأن سمي أستاذا للفلسفة إلا بعد مجيئه إلى تونس، فكانت الجامعة التونسية بالنسبة إليه مناسبة لانطلاق تجربته في تعليم الفلسفة. وبمدينة "سيدي بوسعيد" مقر إقامته، ألف كتابه (أركيولوجيا=حفريات=المعرفة)، من كتاب ذو بعد فلسفي تنسيقي، سعى من خلاله "فوكو" أن يوضح منهجيته التي تتباين في أبعادها وتمظهراتها عن المنهجية البنوية التي كان يفاخر بالانتماء إليها. لكن في مؤلفه هذا يجري "فوكو" حوارا بينه وبين أقطاب البنوية، ليخلص في خاتمته إلى رفض البنوية لعدة اعتبارات، وفي مقدمتها السياسية، سيما بعد أحداث الحركة الطلابية التي عرفتها الجامعات الفرنسية في ماي 1968، حيث كان "فوكو" غائبا عنها لالتزاماته المهنية، حيث كان حينها يمارس تدريس الفلسفة بالجامعة التونسية -مثلما سبق القول-. ويعلن "فوكو" أن تلك الأحداث كانت بمثابة اللحظة الفارقة التي نقلته إلى ما بعد البنوية وجعلته ينفصل عنها، ليصبح منتسبا إلى الجنيولوجيا، على الطريقة النيتشوية منذ أواخر ستينات وبداية السبعينات. والجدير بالذكر، أن البنوية قد تراجعت وأقل نجمها بعد الأحداث إياها، خاصة بعد ما وجهت إليها أصابع الاتهام من طرف البعض على أنها لا تمثل نظرية في العلم، بقدر ما هي تعبير عن إيديولوجية السلطة.

وبالعودة إلى "التركيب"، فإنه يرى بأن اللحظة التونسية، قد عملت على جعل "فوكو" يقترب من الفكر الفلسفي المنهجي بعدما كان همه البحثي تشكل وتأسس في البسيكولوجيا ثم في تاريخ الأفكار. [لقد كتب فوكو "مقالته الشهيرة حول المؤلف (qu'est ce qu'un auteur?) مفندا حدته الزمنية والإبداعية. وكان يصبو من خلال مقالته إلى اعتبار عملية إنتاج تأليف ما هي سوى استرسال لتحولات عدة بقدر ما تقاس بنمط تحولاتها في الزمن، يقول "فوكو": <إن الهويات تتحدد بالمسيرات المتعددة>. ومدلول ذلك، أنه علينا أن نخضع المؤلف إلى تقطعات المسيرة التاريخية وتحولاتها وتغيراتها. ويقول أيضا: <لكل منا طريقته الخاصة لكي يتغير أو بعبارات أخرى تفيد المعنى ذاته. لكي يدرك أن كل شيء غير... إن طريقي في أن لا أكون الشخص نفسه هي بالتحديد في تمظهري الخاص جدا لوجودي>.

لقد استخدم "جورج دوميزيل" حد أو تصور القناع عندما تحدث عن "فوكو" قائلا: <لقد كان يملك فنا عجيبا في ارتداء الألقاب...>. ما يستفاد منه أن هوية الفرد -وفق نظرة "فوكو" لا تبني على وحدة صماء جامدة متصلبة للشخص لأن التعدد يسكنها ومتغلغل بها. [

لقد ترك "فوكو" العديد من المؤلفات، نذكر منها:

تاريخ الجنون في العصر الكلاسيكي [1961]. - مولد العيادة [1963]. - الكلمات والأشياء [1966]. - حفريات المعرفة [1968]. - مولد السجن: المراقبة والمعاقبة [1975]. - تاريخ الجنسانية، وقد صدر في ثلاثة أجزاء أو مجلدات [1976-1984].

- معالم المقاربة الفوكوية:

بادئ ذي بدء، يجب التنويه بأننا سنركز في هذه المقاربة على الفترة الممتدة من بداية الستينات إلى نهايتها تقريبا، أي حوالي عقد من الزمن، حيث لا يزال "فوكو" بنوييا. والجو العام الذي يطبع ويسم الطرح الفوكوي يدور في فلك الكشف عن مظاهر الإكراه والقمع والإقصاء في المجتمع الغربي. والتي كانت من بين الانشغالات الأولى التي بلورت الأرضية المعرفية لفوكو في فترة لاحقة. وقد تمثلت هذه المظاهر في الجنون لمرض في طور أول، والسجن والعقاب في طور متأخر، وهي في نظره تجسد الحقيقة الثابتة القابعة في أعماق المنظومة المعرفية الغربية جلياتها المتعددة. وهي منظومة، يسمها "فوكو" بأنها مهيمنة، مؤسساتية متورطة، وقصدية، تظهر ما تريد إظهاره فحسب: عقلانية- إنسانية- رير. بينما المناطق المعتمدة بما تتطوي عليه من قهر، واضطهاد، وجنون، ومرض وسجن فهي بمثابة طابوهات مسكوت عنها ولا ينبغي الدنو بها. وهو ما نذر "فوكو" نفسه لارتباده والتنقيب فيه، بغرض تعريته وإخراجه إلى العلن، أو نقله من الاستتار إلى الظهور.

وعليه، فإن مهمة "فوكو" كانت محاولة الغوص في هذه المناطق والدوائر المغلقة اعتمادا على المعاينة الواقعية والأرشيفية، لأن الأولوية نسبية إليه هي السفر في المحظور والغوص في العوالم البعيدة بلغة "تيتشه"، ولأن مستقبل الفلسفة -بمنظور "فوكو" يكمن في تفتحها واطلاعها على ما يجري في العالم الخارجي، وفضح الأوضاع اللاإنسانية التي كابدها الإنسان وأثرت في مجرى حياته بصورة أو بأخرى. وهو ما سنحاول بر أغواره من خلال التركيز على الجنون والمرض.

مبدئيا، تجدر الإشارة إلى أن "فوكو" هو الباحث الفلسفي الذي تميز واشتهر بالاشتغال على الأرشيف، ما جعله أشبه ما يكون بعالم الآثار، ذلك كان يفضل أن ينعت بالمؤرخ، لا الفيلسوف، ولأدل على ذلك أن أعماله تتدرج وتصنف ضمن تاريخ الثقافة، والمقصود الثقافة الغربية التي نسب إليها وراح يكرس جهده وبحثه لاستنتاج مكوناتها. وكان التقاؤه بعالم الأرشيف مرتبطا بالفترة التي درّس فيها بالسويد، حيث مكنته من

اطلاع على سجلات الجنون وفحصه لما يربو عن ثلاثة آلاف وثيقة أو ملف حول مرض أو ظاهرة الجنون وكيفية التعامل معه، وهو الأمر الذي دفعه إلى مدارس هذه المشكلة وتناولها في كتابه (تاريخ الجنون في العصر الكلاسيكي). ويميز "فوكو" بين ثلاثة عصور أو حقب، هي: عصر النهضة الذي يربطه بالقرنين الخامس عشر والسادس عشر؛ والعصر الكلاسيكي الذي يحدده بالقرنين السابع عشر والثامن عشر؛ وعصر حداثة الذي يمثل القرنين التاسع عشر والعشرين. والآن، ننقل توا للتوقف عند بعض مظاهر الإكراه والعنف والاحتقار التي تمارسها الحضارة الغربية وتحرص على إخفائها، والتي اكتشفها "فوكو" وعمل على تحليلها وانتقادها، بادئين بـ:

جنون: يعتقد "فوكو" أن الجنون في عصر النهضة أخذ شكل البرص أو الجذام (La lèpre)، ما جعل الكنيسة عاجزة عن علاجه، وقامت بجراعات غريبة تتمثل في عزل المرضى والمصابين، ورفضهم في وضعيات لا إنسانية. ولم يعرف هذا العصر حديثاً أو معالجة علميين ظاهرة، بل كان تناوله يتم بطريقة لا علمية: فلسفية ودينية لاهوتية. وكان الحديث عن الجنون مسموحاً به وحرراً في الأوساط الأدبية والفنية، ثم إلقاءه للسلطة. وكان المجنون، في ظل هذا الفضاء الفني، كثيراً ما يعنت بقدراته الفوطبيعية وطاقته في التعرف إلى الغيب واكتشافه.

وفيما يخص العصر الكلاسيكي، يبدأ "فوكو" هذه الفترة بالإحالة إلى "ديكارت"، اعتماداً على مقولته: 'لست مجنوناً ما دمت أشك، ولست جنوناً ولا سكيراً، فأنا أفكر، وإذن، أنا موجود'. والعبارة أو المقولة -بحسب القراءة الفوكوية- ليست بريئة، فهي تتضمن معنى العجز عن معرفة جنون وإدراك ماهيته.

ويسجل "فوكو"، أنه في عهد حكم "لويس الرابع عشر"، أنشئ أول مشفى للأمراض العقلية، وقد قامت أول محاولة في هذه الفترة في إطار تصنيف بالإستناد إلى الحمى المصاحبة ودرجة ارتفاعها واشتدادها لدى من تداهمه. وقد كف الأدب في هذه المرحلة عن الاهتمام بالجنون أو طرق إليه، حيث أخذ إلى السكون والصمت.

إن المستشفى في حديثه عن الجنون يورد حالات، كالفقر، والشذوذ والخيانة. فمثلاً، أميرة تنتهم زوجها بالخيانة، فيفقد مركزه ويخلع من منصبه ووضع في المستشفى. زبدك، أصبح المجنون هو كل ما لا ترغب فيه السلطة الاجتماعية، وهو تصنيف معياري، بحسب ما يذهب إليه "فوكو".

وفي عصر الحداثة، سيظهر الجنون من جديد من خلال صوت الثورة الفرنسية التي تدعو بالأساس إلى الحرية التي كانت إحدى أقوى عاراتها، وكانت الأزمة متولدة ومنبثقة من تزايد أعداد الوافدين على المستشفيات. ومن ثم، العمل على تحريرها وإدماج الوافدين إليها في معركة ثورة الصناعية لمسيب حاجتها لليد العاملة.

ويتدرج "فوكو" عبر "هيغل"، إذ يرى هذا الأخير أن حالة اللاوعي هي الشرط الضروري والأساس للوعي، فالعبرية تقوم على الاغتراب اللاوعي، ليكون الجنون محتوى في العقل وجزءاً لا يتجزأ منه، لذلك يصاب العباقرة بالجنون (حالة "نيتشه"، على سبيل الذكر لا الحصر). ومع طب الاختباري (أو التجريبي)، تظهر فكرة التشريح فوق التصنيف، ومع "فرويد"، يتبين أن الجنون ليس إلا حالة مرضية تعكس بقوة صوت لاشعور الذي يتعين علينا أن ننصت ونصغي إليه بعمق. وبالتالي، غدا الجنون ظاهرة يمكن تقصيصها بأساليب وطرائق علمية، وعاد الحديث مرة أخرى، عن الجنون في الفضاءات الأدبية والفنية.

وفي مؤلفه الآخر (ميلاد العيادة)، الذي يؤرخ للقرن الثامن عشر، ففيه عرف الطب ثلاثة أطوار، هي:

- طور ما قبل القرن الثامن عشر: وفيه كانت البيولوجيا تقوم على التصنيف؛

- طور القرن الثامن عشر، وهي قد عملت على افتتاح وتدشين مرحلة التشريح؛

- طور الطب العيادي، وهي مرحلة أسست لما بعد القرن الثامن عشر، إذ أعقبته، وهي تعكس طور التشخيص والبحث عن العلاج بطرق علمية مثبتة. و"فوكو" في كتابه هذا، لا يولي اهتماما بالغا للغة، بقدر ما يقوم بدراسة تاريخية للطب، فالمرضى، المجنون والطفل حالات تتصف بصفات عديدة، يمكن معاينتها وتشخيصها اعتمادا على أعراضها، دون أن تكون ثمة حاجة كبيرة أو متزايدة للغة، لا بل وحتى بمعزل عنها دونها أحيانا.

وفي جانب آخر، يركز "فوكو" على الموت الذي يعد في العرف الطبي الحديث ظاهرة عصبية فيزيائية كشفت عنها الدراسات التشريحية. وهو يسميه "فوكو" بالأركيولوجيا المعرفية. وفي كتاب ثالث له، وسمه بـ (الكلمات والأشياء)، جعل له عنوانا فرعيا: 'من أجل أركيولوجيا بنيوية'، يود في كتابه هذا إلى نفس التراتبية التاريخية للحقب أو العصور. وميزة هذا الكتاب أنه موسوعي، إذ يتحدث فيه عن الذات والآخر في الثقافة الغربية، وهو ممثل ومرمز بالمرضى والمجنون اللذين لا نعرفهما كما يجب. والكتاب يزخر بالعديد من الأفكار والمفاهيم التي يزودنا بها صاحبه. من ضمنها، اعتقاد "فوكو" أن عصر النهضة لم يكن عصر علم بالمعنى القوي، بل عصر أدب ودين، ويستهدف إدراك المتشابه ضمن تناقضات قائمة.

وبمعاينته للعصر الكلاسيكي، فإن "فوكو" يعتقد أنه قد قطع نهائيا مع سالفه، وهو يستخدم مصطلح أو حد 'الإنفصال' بدل القطيعة، إذ يمكن نرصد ثلاث معارف لم يشهدا عصر النهضة، ألا وهي: التاريخ الطبيعي، وتحليل الثروات والنحو العام. هذه الألوان الثلاثة من المعارف سميها "فوكو" التجريبيات الثلاث، والتي يرى أن الفكر الغربي قد تأسس عليها في هكذا حقبة. هذه التجريبيات الثلاث ستعرف، بدورها، قطيعة انفصالية، بمصطلحه، عندما يبدأ عهد أو عصر الحدثة الذي تحكمه مقولة التمثيل، فالربع مثلا، يتم تمثيله نقدا. ومن وجهة نظر "فوكو"، بحلول الحدثة سيتم القطع نهائيا مع العهد السابق ممثلا-طبعاً- في العصر الكلاسيكي، لا سيما بعد بزوغ البيولوجيا في تجاوزها للتاريخ الطبيعي، وتحليل الثروات الذي سيحل محله الاقتصاد السياسي مع "آدم سميث"، وسيأخذ فقه اللغة مكان النحو العام. وبالتالي، ميلاد ونشأة ثلاث تجريبيات جديدة، وهو ما أدى إلى انبلاج وتدشين فجر جديد يجسد "ابستمية الإنسان" في هذا العصر. وستدفع هذه العلوم إلى ميلاد ما يطلق عليه اسم 'علوم الإنسان أو العلوم الإنسانية'، فالبيولوجيا، مثلا يتمخض عنها علم النفس، وما واكبه في شقه التحليلي من السعي للكشف عن لاوعور المعارف (مثلا، توظيفه من طرف "كلود ليفي ستروس في الكشف عن الجانب الخفي من الأشياء أو الظواهر التي درسها وعالجها في كتابه أبحاثه الأنثروبولوجية)، الأمر الذي جعل "كانغيلام" يصف "فوكو" بأنه مؤسس نقد العقل التاريخي للمعرفة. ولكن، ما هو المنهج الذي تمتده "فوكو" في دراسة الظواهر التي عالجها، وإدراك نظريته في التحقيب التاريخي؟

- المنهج الأركيولوجي والأركيولوجيا: لقد توصل "فوكو" إلى ابتكار منهج جديد أطلق عليه اسم 'المنهج الأركيولوجي' أو الحفري، وهو كما ينتبذ من تسميته، يستقي من الأركيولوجيا طريقتها في الحفر والتنقيب عما بقي عالقا ومطموسا من آثار قديمة. غير أن "فوكو" لا يستعمل معاول والحفارات وآلات القياس، بل يستخدم المفردات والألفاظ ليكشف عن أسرار وخفايا أرشيف تآكلت مكنوباته وما دون فيه وغطى حقائقه بنبار وطمره النسيان، لأن الأرشيف مجال موضوعي ولا شعوري في الآن معا، يمكننا أن نصل إلى إدراك حقيقة البنية المنضمة فيه بأقل حاذير والانزلاقات المنهجية. ومنه، فالأركيولوجيا ليست جيولوجيا، ولا سيكولوجيا ولا أنثروبولوجيا، بل هي إنها تتحدد وتتمركز في المسافة

اصلة بين هذه التخصصات والميادين بعضها بعض، على أساس أن كلا منها يقدم أنموذجا معرفيا متميزا ومستقلا. تماما، مثلما أن التاريخ الذي تتعقبه الأركيولوجيا لا يمت بأدنى صلة إلى المتواليات الكرونولوجية والتعاقبات الزمنية. يقول "فوكو": <<إن الأركيولوجيا ليست علم آثار... ولكنها حقل للبحث، يمكن تحيدها بما يلي: في كل مجتمع ثمة معارف وأفكار فلسفية ومعتقدات شعبية ومؤسسات سياسية وتجارية، هذه تقضي إلى ضرب من الإبستمية المضمرة التي تنتمي إلى هذا المجتمع>>.

إن الأركيولوجيا، وفقا لهذا التوصيف مجال للبحث أو حقل معرفي، تعنى بدراسة الأفكار والمعتقدات وكذا المؤسسات؛ إنها تتناول بالدراسة ممارسات الخطابية واللاخطابية. فمهمتها هي مهمة وصفية تتقصى مختلف الممارسات في حقب معينة، والغرض منها الوقوف عند الإبستمية التي تحكم شتى الممارسات أو بالأحرى تقود إليها. لا يهتم "فوكو" بنقد المبادئ بل بالممارسات وما ينجر عنها بغية الوصول إلى البنية العميقة مستترة وإدراكها.

هذا وتتسلح الأركيولوجيا، بموجب القراءة التي يعتمدها "فوكو"، بمفهوم الانفصال، حيث تخضع المعارف إلى التحول، وهو واقع قائم في التاريخ، وهو بهذا يرافع ضد الظاهرية والماركسية. ولذلك، يعتقد أنه بعد 1969، سيصبح منتسبا إلى الجينولوجيا. ويقرر "فوكو" أن إبستمية عصر الحديث، قد شهدت التجريبيات الثلاث الأنف ذكرها، ولا ضير من التذكير بها (البيولوجيا التي عوضت التاريخ الطبيعي وقطعت الصلة، والاقتصاد السياسي الذي قطع مع تحليل الثروات، وفقه اللغة الذي انفصل عن النحو العام وانفصل كلية عنه). ويرى "فوكو" أنه في ثنايا موقوف هذه التجريبيات الثلاث المحدثه ظهرت وانبتقت ما تدعى 'العلوم الإنسانية'، بحيث أدى فقه اللغة، على سبيل المثال، إلى ظهور سانيات التي لا تماثل في تداعياتها ما ذهب إليه البنيويون الذين اعتبروا اللسانيات ثورة مضادة لفقه اللغة، في الوقت الذي يعده "فوكو" مقدمة أساسية لمبحث اللسانيات الذي وينظر إليه على أنه مجرد امتداد وتوسيع لأطر فقه اللغة. فالتاريخ هو الفيصل، باعتباره أقدم العلوم، وهو حاضر دائما.

ويشيد "فوكو" بالأنثروبولوجيا والتحليل النفسي، مقدرا أن ما يسمى بعلوم الإنسان التي نشأت بتأثير من التجريبيات الثلاث التي عرفها عصر حداثة، محكومة بنموذجين، أحدهما شكلي، تمثله الفيزياء؛ والآخر تأويلي متأثر بفقه اللغة. وهي في كلا النموذجين، كانت متأثرة بهم الذات أو الوعي، وهو ما يقف عقبة تحول دون قيام فعلي وحقيقي للعلوم الإنسانية. وعليه، يعتقد "فوكو" أن العلوم الإنسانية بهذا وضعية أو صورة، لا يمكن أن تكون مؤهلة لأن تأخذ اسم العلم أو تتسمى به، إلا من باب المجاز. وهنا، نشير إلى أن "فوكو" يتحامل على العلوم الإنسانية، منكرًا وجودها أو استحقاقها اسم 'العلم'، لأنها -بنظره- ترتبط بوهم أساسي ألا وهو وهم الإنسان. ومن هنا، لا يمكن أن نتحدث عن علوم إنسانية، إذ جدوى من القول بأن العلوم الإنسانية هي علوم خاطئة بل هي ليست علوما على الإطلاق، بحجة أن التشكيلات التي تحدد وضعيتها وتجدرها إلى الإبستمية الحديثة تمنعها من أن تكون علوما. لقد كونت الثقافة الغربية تحت مسمى الإنسان كائنا يجب عليه أن يكون لجملة أسباب مترابطة دانا وضعيا للمعرفة دون مقدوره أن يكون موضوع علم.

وفي تعداده لأبعاد الإنسان، يلفت "فوكو" إلى ما يكشف عنه الاقتصاد في نظرتة للإنسان المنتج، والبيولوجيا في اعتبارها للإنسان ككائن حي وظائف أساسية، واللغة التي تنتظر للإنسان ككائن متحدث ومتواصل، ولكن الإنسان غير موجود. ومنه، فالذات لا تنتج المعرفة عند "فوكو"

كس ما يذهب إليه "ديكارت" أو "كانط"، ما ينتج المعرفة -حسبه- هو 'الابستمية'• كوضع لا شعوري، نحن مجرد وسط له. فما نسميه العلوم
إنسانية ليست سوى مجموع تشكيلات خطابية تتأسس على اللغة.

ومع خصوصية موضوع بحثه الذي أطلق عليه لاحقا 'تاريخ أنساق الفكر أو الأفكار'، فإن 'فوكو' يتقاطع مع البنيويين عموما في أنه
يكون بهاجس جعل الفلسفة علما محكما، وهو الحلم نفسه الذي راود 'كانط' وعاش لأجله، لأن رغبة 'فوكو' المصرح بها هي هدم ونسف
هوم الأنا أو الذات، أو ما أسماه 'الوعي الشقي'، كما انحدر إلينا من ثايا الفلسفة الوجودية، ما جعله يسعى لبناء خطاب فلسفي صارم
صف بالنقدية والعلمية والشمولية، ويسلك طريق الحفر والتنقيب في خبايا الأرشيف المشكل للبنية الابستمولوجية -التاريخية- الاجتماعية
مجتمع الغربي بهدف إدراك العلمية.